الحرية والعدالة الاجتماعية في الإسلام

هناك أسباب عديدة عجلت بتغير الأوضاع في مصر القديمة، أهمها تفاقم الخلافات وارتفاع حدة الصراع بين المذاهب المسيحية المختلفة، والغلو في مظاهر البذخ، وانتشار المسوح الدنيوية التي استبدت بحياة الأساقفة والقساوسة.

تلك كانت بداية تحلل الواقع القديم ليحل بدلا منه عالم جديد يحكم أطرافه التسامح والحب وكفالة العيش الكريم والحرية لمن يعيشون في أكناف الإسلام.

يضاف إلى جملة الفضائل الملموسة أن المسألة الدينية لم تعد منذ الفتح الإسلامي ميدانا للصراع الطائفي مثلما حدث في عصر الرومان مع المسيحية، ولم يكن المسلمون يحملون بذور المستعمرين، ولم يكن هناك من يحبرهم على التسامح الا خصال الدين الحنيف، فالقوة كانت في أيديهم بعد طرد الروم، وكان بامكانهم قطع كل شئ بحد السيف، ولكنهم تركوا أمور الحياة لمن يعالجها بالدين والعلاقات القائمة على الحسني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتبعا لذلك لا أحد من المسلمين اجترأ أو حاول اختراق عقيدة مسيحي واحد، وأن التاريخ يشهد للمصريين الذين تمسكوا بالمسيحية واستشهدوا بعد صراع دام مع روما وبيزنطة، فلا يمكن أن يتهمهم أحد بأنهم ارغموا على ترك دينهم واعتنقوا الإسلام.

لا يستطيع كائن من كان ان ينزع الوعى لحركة التاريخ عن مسيحي مصر، وقد ترامى إلى اسماعهم من قبل نبأ الحريات الدينية التي ظفر بها نصارى الشام من قبل أن يدخلوا إلى صحن الإسلام.

إن تعاليم الإسلام تحرص على محاربة العنصرية البغيضة وترسم لنا خطوات ايجابية يكرم بها الانسانية في شخص غير المسلمين وان تكفل لغير المسلمين حقوق العيش والتنقل والرعاية والمساعدة:

{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ} [التوبة: ٦] وجملة القول:

"إن علاقةالإسلام بالديانات السماوية في صورتهاالأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلي، وان علاقته بها في صورها المنظورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات عنها"[١].

ولكي نعرف المزيد من المسيحية في مصر لا بد من الاتصال بحركة الواقع وما كان يجري على ارض البلاد، فبوفاة الإسكندر المقدوني في الثانية والثلاثين من عمره كثرت الفتن والحروب إلى أن امست مصر ولاية رومانية سنة ١٤٦ق. م.

وعرفت المسيحية طريقها إلى قلوب المصرين والرومان فيها سنة ٦٥م، وكان الصراع لا يزال مندلعا بين انصار الحضارة الإغريقية ومن كانوا يشيعون أفكار الاسكندر الأكبر، وعملوا جاهدين لصبغ الروح المصرية بالصبغة الهيلينية وبين الوطنين من أهل البلاد.

من المعروف ان كل ماض في حياة المصرين مقدس، وأى ماض يعود إلى الأصالة والأصالة تستوجب الإجلال والإحترام، وقد ترسخ فيهم هذا التقديس إلى حد بعيد الغور.

وسرعان ما بزغ نجم الأسكندرية، ولم تسيطر مسيحية في العالم كما سيطرت مدرسة الأسكندرية التي صارت العاصمة الثقافية للعالم المسيحي والوثني على السواء، ولقد تخرج في مدرستها اساتذة وعلماء صاروا في بلادهم اعلاما حتى ان بطريرك الأسكندرية كان يلقب (قاضى المسيحية في العالم).

وفي السنوات الأولى لظهور الإسلام كان يسكن مصر طبقتين: الرومان ومنهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الإكليروس، والأقباط يخالطهم

---

١ - المرجع: د. محمد عبد الله دراز (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) مجلة لواء الإسلام فبراير ١٩٥٨.

بعض المولدين من اليونان وغيرهم من النازحين بالتجارة أو الخدمه او غيرها من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة.

وبعد ما تبددت قوة المدن اليونانية وصارت دولـة الأسكندر تتجزأ من بعده، ظهر سلطان الرومان، وصار العالم تسيطر عليه القوتين العظميين - آنذاك - الفرس والروم:

"آنذاك. كان المسيحيون جميعا قد اتفقوا اتفاقا عجيبا عندما رأوا هرقل وجهاده مع الفرس ذلك الجهاد المدهش، وكانوا يرقبونه وأنفاسهم خاشعة فى الصدور من عظم ما كان في نفوسهم من رهبة، فلما أن هزم الكفار وخلّص بيت المقدس منهم، وعلا أمر الصليب فرح المسيحيون بالنصر على اختلاف نحلهم من قبط وملكانيين، وكذلك اظهروا سرورهم جميعا بما حل من اليهود من النقمة"[1].

ثم سرعان مادب الخلاف بين المسييحين في مصر وقسطنطين أمبراطور روما، في ذلك الوقت كانت الدعوة المحمدية ينتشر عبيرها بالكتب التي بعثها رسول الله ﷺ إلى (هرقل) حاكم مصر الروماني و(قيرس)المقوقس.

كان الكتاب الذي وصل بيد "هرقل" خطت كلماته بعد اطلاع وفير على أحوال اقباط مصر وما يقع عليهم من ظلم واضطهاد، وبحكم انتقال العرب بالتجارة في البلاد الواقعة تحت سيطرت الدولة البيزنطية، اكتشفوا تفاصيل الخلاف بين أنصار الطبيعتين (الأريوسيين) و(الملكانيين) من اتباع الدولة البيزنطية.

ثم أسقط المصريون عن هرقل مظاهر الاعجاب والتقدير التي اسبغوها عليه في سنواته الأولى من حكم مصر عندما حارب الفرس وانتصر عليهم.

في تلك الفترة من التاريخ لم يكن هرقل ولا دولـة الروم التي يتبعها في نضج الدعوة المحمدية، وقد آثر المصريون التعامل معها ومحاولة تفهم تعاليمها.

---

١ - المرجع: الفرد. ج. بتلر (فتح العرب لمصر) مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص١٥٥.

ذلك كان حال أهل الشام وهم اخلاط من الآراميين والسريان واللأنباط واليهود وغيرهم ممن اضطهدوا على أيدي رجال هرقل، ولم يكن حظهم أفضل من أحوال المصريين حتى وصلوا إلى مفترق الطريق وأصبحوا لا يهتمون إذا كان على رأس بلادهم حاكما روميا أو عربيا، المهم من الذي يكفل لهم أمور العيش والحرية والعدالة؟.

كان حديث ذلك الزمان ولعدة سنوات تلت الحوار الذي دار بين المقوقس عظيم القبط في مصر وبين عباده بن الصامت حين حمل اليه رسالة النبى ﷺ فخوفه من جموع الروم وشدة بأسهم.

أجاب عبادة بايمان المسلم الذي لا يخشى إلا الله:

"يا هذا لا تغرن نفسك و تقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه. وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك اعذر لنا عند ربنا إذا أقدمنا عليه أن قتلنا عن آخرنا كان أمكن في رضوانه وجنته، وما شيء أقر لأعيننا ولأحب لنا من ذلك. وإننا حينئذ على الحسنيين. إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرت بنا. لأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه**{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [البقرة: ٢٤٩].

وما من رجل إلا ويدعو ربه صباحا ومساءً.. أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى ارضه ولا إلى أهله وولده انما همنا ما أمامنا. وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لأنفسنا اكثر مما نحن فيه".

بساطة عبادة بن الصامت في حديثه جعلت من كانوا هناك حول المقوقس يعيدون النظر في تأمل.. بساطة.. زهد في عرض الدنيا ومتعتها.. سمو روحي

وأخلاقي رفيع، وبعيدا عن العصبية وحد السيف فتح الإسلام صدره لمن أراد الله لـه الهداية: (من يهديه الله يشرح صدره للإسلام... " ضاربا عرض الحائط بكل ما من شانه الارتباط والانحياز إلى قومه بالعصبية والباطل.

ويفرق المصطفى صلوات الله عليه وسلامه بين حب الانسان لقومه، وهو أمر فطري، وبين الانحياز اليهم بالباطل حين ساله رجل: "

- يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟

أجاب:

- لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم"[١]".

ولم يكن من المستغرب أن ترى بيزنطة في الإسلام دربا من العقيدة الأيروسية التى قرر مجمع نيقيه اعتبارها هرطقة فاسدة، معلنة عن كشف وجه العصبية البغيض الذي لا يرى أنوار الحقيقة تحت سطوع الشمس في كبد السماء.

كانوا لا يدركون أن كل نظام قائم على نصب الأوثان والشرك بالله يشتمل في نفسه على عوامل فنائه.. لا يعني هذا أن الجديد ينسخ القديم كله، بل ان الواقع يستبقي من القديم أفضل ما فيه فيدمجه في الجديد ويرفعه إلى أعلى، مثلما صنع الشرق حينما كان معلما لأوربا وأوقفها على العلوم والفنون، مؤكدا أن ما تلقفته أوربا كان العلم الهيلييني في صورة عربية موسعة بعض التوسع.

ومهما قيل في شان الفكر وانه كائن لـه حضور وكينونة تتسع على مدى الآفاق، ومهما اختلف البعض حول كيفية الحصول عليه ومن اين جاء، فسيظل أصحاب النفوس الذكية والضمائر الحية يذكرون ما بذله المسلمون في تقدير المعارف التي فتحت أمام مسيحيي الغرب طريق الحضارة.

ولكن المشكلة التي يعاني الغرب منها الآن تكمن في عدم وجود قيمه انسانية واحدة في حضارته قد تمكنه من تفعيل الأعمال الانسانية بعيدا عن

---

١ - المرجع: رواه احمد وابن ماجه: المشكاة: ٢: ٥٩٦.

اعلاء شأن المديات والصدام:

"جوزيف نيد هام" العالم البريطاني وعميد جامعة كامبردج مسَّ طرفا من جناح الحقيقية حين عبر عن ازمة الغرب بقوله:

"إن الإلتزام بدين معين يجعل من الصعب على المؤمن ان يتبين معاني الحضارات والديانات الأخرى بشكل اصيل"

الجناح الآخر من الحقيقة لم نقل أن العالم البريطاني أغفله ولكنه سقط منه سهوا، لذا وجب أن ننوه عنه بتلك المواقف المماثلة في جوهر الدين الإسلامي اذ كان هو الوحيد والأسبق في مجال تبين معاني الديانات السماوية والايمان بما نزل على موسى وعيسى.

وما يسترعي النظر أن الغرب - يشايعه نفر من داخل الأوطان العربية - يخشى من عودة الشعوب إلى التزود من مناهلها القديمة، فهذا بزعمهم يعد هروبا إلى الوراء، وكأن كل ما كان (وراء) يخيف.

هذا الموقف المتأثر بكتابات المستشرقين الذين عاصروا الاستعمار وصاحبوه في غزواته الميدانية والفكرية، هؤلاء الذين ترتعد فرائصهم ويخافون من عودة المسلمين للإستمساك بتراثهم، نقول لهم:

"إن التراث يشكل علاقة حركة بين ماضي الأمة وحاضرها، وهذه العلاقة بجوهرها هى علاقة تفاعل بين حركتيين من تاريخ الأمة، حركة بلورة منجزات الماضي وحركة هى في طريق الصيرورة لإنتاج المنجزات الأكثر تطورا وتقدما للأمة"[1].

* * *

١ - المرجع: حسين مروه. مجلة الطريق البيروتية، شباط ١٩٧٩ص٥٧.

الأصوليون بين مطارق أمريكا وسندان الحكام العرب

اتفق الأصوليون والعلمانيون على أن الأوضاع الاجتماعية المزرية ترجع اسبابها إلى غياب الديمقراطية، وان كانت ديموقراطية كل منهما تمضي بآليات نوعية مختلفة.

ومع ذلك فإن الحالة العامة تدفع مختلف القوى الناشطة على الساحة الإجتماعية إلى حشد مختلف طاقاتها ناحية التغيير، واحلال أنساق جديدة مكان واقع رث أُعلن عن موته منذ زمن طويل، ولكنه - حتى الآن - لم تستخرج له شهادة بالدفن تعلن عن موته رسميا.

الأصوليون الإسلاميون يأكدون أن القهر الإجتماعي أشاع الكبت وخلق نوعا من اللآمبالاه، وأنه - القهر - أدى إلى ارجاء اطلاق صوت الإنسان من على مئذنة اليقظة، ويتساءلون:

كيف ستسوى الأمور عندما تُصعِّد الديمقراطية أعضاء الحركات الإسلامية ليكونوا نوابا للشعب أو وزراء في حكومات قادمة؟

تصعد إلى الأذهان تجربة الجزائر الديمقراطية بوجهها الدامي، فعندما نجح الإسلاميون باجماع جماهيري تكالبت عليهم قوى الظلام في الداخل والخارج، وحدثت الصدامات اليومية والتى راح ضحيتها الالآف من خيرة شباب شعب الجزائر.

والمعروف أن أول من ساهم في وضع لبنات الترقي الإسلامي في الجزائر كانت على يد أعضاء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس في ٥مايو ١٩٣١، وتتلخص مبادئ الجمعية في الشعار

المكتوب على صدر جريدة (الشهاب): الإسلام.. العروبة.. الجزائر.

وركزت الجمعية عملها في ثلاثة محاور:

أولا: تطهير الدين الإسلامي من البدع والخرافات والعمل على احيائه حسب مدرسة التجديد الإسلامي والدفاع عنه ضد أعدائه في الجزائر وهم: المبشرون، والمستعمرون، والعمل على تحريره من الاستعمار في المجالات الثلاثة التالية: المساجد - الأوقاف الإسلامية - القضاء الإسلامي.

ثانيا: التعليم العربي الإسلامي.

ثالثا: الوطن الجزائري بكل أطرافه ومراميه جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الإسلامي.

فماذا حدث لدعاة تطهير الدين من المبشرين والاستعمار قديما،.. وماذا حدث للدعاة الجدد وهم يصرون ان تظل الجزائر جزءا لا يتجزأ من الوطن العربي الإسلامي؟

يقول الواقع - لا نحن - انه عندما صعدت حركة حماس عن طريق صناديق الانتخابات والاقتراع الحر وباشرته لجان أوروبية، وحين أسفرت النتائج عن صعود حركة (حماس) بالفوز على منظمة فتح في انتخابات عام ٢٠٠٦، وحينما تأهبت لتولي مهام ادارة شؤون الشعب الفلسطيني بعدد ٧٦ مقعدا من مجموع المقاعد البرلمانية البالغ عددها ١٣٢ مقعدا، مقابل ٤٣ مقعدا لمنظمة فتح، انبرت كل من امريكا واسرئيل بالرفض، وشنت الحملات الإعلامية ضد حركة(حماس) وأعضائها.

قوبل ذلك باستجابة فورية من بريطانيا وفرنسا وجر معهما منظمة الوحدة الأوروبية.. العالم القديم الذي لا يزال حتى اليوم يعيش على نزح مواردنا وابتلاع امتنا العربية قرر قطع المساعدات التي تتحول إلى سكر ولبن وزيت

ومرتبات تصرف شهريا لموظفي قطاع الصحة والمستشفيات والتعليم.

جـاءت الضـغوط هـذه كمكافـأة للشـعب الفلسـطيني لأنـه مـارس حقوقـه الديمقراطية، وبإرادة حرة اختار ممثليه ومن يتولون الدفاع عن قضاياه العادلة.

بالنسبة للتجربة الديمقراطية في مصر عام ٢٠٠٥ لا ندعي أن الغرب الذي يموه علينا، ويتشدق في زيف بأنه ينشد الديمقراطية لشعوب امتنا قد وجد نفسه في محنة حقيقية بعد فرز صناديق الاقتراع التي اسفرت عن فوز أعضاء جماعة الإخوان المسلمين المحظورة في الانتخابات البرلمانية، لأن ورقة الضغط الأمريكي الديمقراطية التي تلعب بها على الحكام العرب، ليس القصد من ورائها سوى ابتعاث مشاعر القلق في نفوسهم والخوف من قدوم وافد جديد مهمته العمل على اقصائهم عن مقاعد الحكم، فلا يبقى أمام أحد منهم من سبيل سوى الاستجابة لمطالب الولايات المتحدة الأمريكية، وكلها في الحقيقة مطالب لا تستفيد هى من ورائها وإنما لابد ان تكون في مصلحة الكيان الصهيوني. الأمر الذي ألهب مشاعر العرب والمسلمين بالسخط ودفعهم لإتخاذ مواقف معادية، بعد أن قوبل وجودهم بالرفض وعدم الاهتمام.

هذه نتائج الديمقراطية في الشرق العربي:

"وبينما يهتم أكاديميون غربيون قليلون بتعامل الشرق الأوسط مع الاهتمامات الحقيقية للناس فإن الغرب بوجه عام ينظر إلى هذه الإهتمامات بوصفها تافهة حتى الآن لأنها تتعلق بأناس معينين يعيشون بعيدا"[١]".

وبوضوح لا لبس فيه ولا غموض يصبح هذا اللون الديمقراطي غير مؤهل للعب دوره المتميز في خدمة الشعوب وانما تظل برامجه قابعة على صدر ورقة محترقة حتى لفح صهدها لم يعد يدفئ صدور البسطاء.

---

١ - المرجع: د. احمد موصلي (أراء الحركات الإسلامية في الديمقراطية والتعددية السياسية) دراسة تحت الطبع.

وعلى الرغم من الأحابيل والفخاخ التي تعدها لنا الولايات المتحدة واسرئيل، وعلى الرغم من انهما يتبنيان مواقف الإقصاء واستبعاد من يرونه غير مفيد للحوار معهم فإن موقف الاختلاف في الرأى يؤدي من جانبهما إلى خلق حالة غير مطمئنة، وغالبا ما تاخذ جانب التطرف والصرامة على الجانب الآخر:

"وعلاوة على ذلك فانه بينما يعتبر الأصوليين تعددين سياسيا لكنهم اقصائيين دينيا، فان آخرين منهم ملائمين دينيا، لكنهم يوجهون برامجهم الإقصائية نحو الخارج، نحو الغرب أو الإمبريالية، حتى على المستوى العلمي يرى الأصوليين أن العلم والتكنولوجيا الغربية لا غبار عليهما من الناحية الإسلامية، بينما يستبعدهما آخرون بسبب افتراض الطبيعة غير الإسلامية فيهما.

والأكثر اهمية انه بينما يدعو غالبية الأصوليين إلى الديمقراطية التعددية ويجادلون بشأن ضرورتها من وجهة النظر الإسلامية، فإن المتطرفين يرون ذلك دليلا على الكفر"[1]".

كما يرون أن عقيدة المسيحيين الجدد كل ما تهتم به تزيف الأمور لصالح اسرائيل وهى ترتدي قفاز الدين، لا تتورع عن ارتكاب اعمال التنكيل، وتختلف مع الجميع، ولا تجمع بينهم الا لتقتلهم بضمير يعبر عن افكار نابعة من مصالحها، وتعترف أن ما تقدم عليه من قتل وابادة له جذور في الدين.

وبالحق. إن الغرب هو أول من بادر بشن هذه الحروب، بالذات ضد العرب والمسلمين مع ان له مشاكل مع جيرانه في كوبا، وفنزويلا، وغيرهما في بلاد امريكا اللاتينية، وهى مشاكل تنذر بالعواصف وتهديد مستقبل أمريكا من

١ - المرجع: المصدر السابق.

الجذور، ولكنهم فضلوا ان يعطوا ظهورهم لتلك العواصف والتفرغ للقضاء على العرب والمسلمين، بضربات تصعق وهجمات تروع شعوب المنطقة.

يفسر (ير مسر) مساعد (ديك تشيني) للشرق الأوسط السر وراء ذلك العنف الأمريكي، قائلا:

"إن الاستخدام العنيف والمفرط للقوة هو هدف في حد ذاته لأنه يقنع الجميع بأن أى معركة مع امريكا أو اسرئيل هى الانتحار بعينه".

أليس ذلك تطرفا وارهابا؟

في مصر كان سيد قطب يقرأ المستقبل في الحاضر، وشرع في تعميق الاتجاه الأقصائي مؤكدا أن الأنظمة الغربية تعيش على تزييف التاريخ والواقع، وكانت الأصولية في زمانه تستبعد التعددية الحزبية، ولم يستطع التفريق بين العداء للمادية والصهيونية، وكل أشكالهما الوافدة من الخارج وبين قوانين الأنظمة المحلية غير المقدسة، ولا بد لمن يلتزم بالقانون الإسلامي مراعاة أن يكون نابعا من الشعب لا أن يكون واجهة رسمية تدير الدولة من ورائها شؤونها الدنيوية:

"ويرى قطب أنه نظرا لأن طاعة الحكومة غير مطلقة فإن الناس يجب أن تثور عندما تنتهك أى حكومة تعاليم القرآن لأنها حينئذ تفقد شرعيتها، وهكذا فإنه بالنسبة لقطب تكون السيادة النهائية محفوظة لله تعالى، بينما يكون تطبيقها البشري حقا وواجبا شعبيا"[1]".

وإذا كان بعض المفكرين يتعاملون مع أرآء الأصوليين كنوع من وجهة النظر السلبية، فإن أرآء كثيرة في الحياة لم يجسدها رجال الدين فقط بل جسدها فلاسفة كثيرون في كتاباتهم:

---

١ - المرجع: المصدر السابق

"فهذا فيثاغورث الذي حاول أن يميز الخير من الشر فقال أن "مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة" واعتبر الفيلسوف ابقراط أن "المرأة هى في خدمة البطن" وصرح ارسطو بقوله "الأنثى أنثى بسبب نقص معين لديها في الصفات" واعتبر أن النساء أميل إلى الشر منهن إلى الخير" أما سقراط فلم يجد حرجا في الطلب من الزوج أن يقرض زوجته لأصدقائه، ودعا أفلاطون "إلى مشاعيةالنساء كما تتداول الحاجيات"[1]".

إن هذه الأساليب، ومع افتراض أنها - في زمانها - تخلص النية في طلب الحصول على سعادة الانسان، فذلك يدفعنا لسؤال: هل الولاء للرجل والمرأة والمحلية والأقليمية أقوى من الولاء لله سبحانه وتعالى؟.

كل الأسئلة الأنثروبيولوجية عن وضع الانسان في الكون والتاريخ لا يمكن الاجابة عنها في ديانات التوحيد الا بالرجوع إلى الله، في اللاهوت المسيحي جعل الله جزءاً من قدراته في شخص السيد المسيح، وفي الإسلام كان "الخليفة" هو من يباشر تطبيق تعاليم الله على الأرض.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٣١].

لو كان الانسان مجرد كائن مادي، كما تزعم النظرة القديمة، لكان من المعقول أن نتخذ أشياء مادية أبسط كالآلات نماذج للسلوك البشري، فلكل آلة قوة دافعة تشغلها.

---

١ - المرجع: فرحان صالح (جدلية العلاقة بين الفكر العربي والتراث) رؤية نقدية. دار الحداثة. بيروت. ط أولى سنة ١٩٨٣ص٤٦.

"علماء النفس في النظرة القديمة يتفقون على أن الغرائز والانفعالات هى تقود الانسان، ولكنهم يختلفون بصدد تحرير الغريزة الأساسية، فبعضهم مثل هوبز (Hobbess)، يزعمون أنها الخوف من الموت، بينما يقول مالثوس (Malthus) أنها غريزة الجوع، وفرويد (Freud) يقول إنها غريزة الجنس"[١]".

وعندما دبت اليقظة في العقل الانساني. بدأ يفكر في مصدر الحياة، وكانت فكرة التجسيد إحدى الوسائل للتعرف على الله، وقد سبق البوذيون المسحيين فى الإعتقاد بعقيدة الحلول، وإذا كانوا يؤمنون بأن بوذا ليس انسانا محضا بل أن روح الله قد حلت به وكما يعتقد بعض المسيحيون أن المسيح شخصية ثنائية: لا هوتية وناسوتية:

"وإن شخصية اللآهوتية حلت بالناسوت، وتسربت هذه العقيدة أيضا إلى "مدعي التشيع) فقالوا بها فيما يتعلق بعلي بن أبي طالب، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتي هبط إلى العالم لينقذه مما فيه من شرور"[٢]".

واليوم يعتبر الرئيس جورج بوش نفسه مسئولا للدفاع عن المسيحية ومحاربة كل من تسول له نفسه أن يعتد بدينه، وقد عبر هنتنغتون عن هذه الحال مؤكدا: إن صراعا ثقافيا واديولوجيا ودينيا هو الذي فرض على الولايات المتحدة وبريطانيا أن يعدا لحرب شاملة على المسلمين.

ويخدعنا بوش عندما ينفخ في أبواقه مدعيا بأنه لا يعادي الإسلام

---

١ - المرجع: روبرت م. أغروسن وجورج ن. ستانيور (العلم في منظوره الجديد. سلسلة عالم المعرفة. الكويت فبراير ١٩٨٩ص٧٩.

٢ - المرجع: لمزيد من التفاصيل. انظر: أ - حامد عبد القادر: بوذا الأكبر ص٩٦ و١٢٠ و١٣٠. ب - د. احمد شلبي: المسيحية ص ١١٥ - ١١٧. ج - د. احمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٢٨ وما بعدها.

والمسلمين، وتنتشر على صفحات الثقافة الغربية - في محاولة للتغرير بنا - مقالات تدعي أن الحملات الصليبية انتهت منذ زمن ويتناسون في نفس الوقت ما تقوم به الجماعات التبشيرية لتنصير شعوب افريقيا وآسيا بدعم مالي يتجاوز المليارات من الدولارات مساهمة من أصحاب شركات النفط الغربيين.

وفي مجال الاعتراف وإبراء الضمير من الجرائم التي ارتكبت في حق الأوطان المسلمة، يعترف أحد المبشرين قائلا:

"إن من أكبر الأخطاء التى كنا نرتكبها أثناء حملاتنا التبشيرية في هذا الجزء من العالم هو أننا كنا نتقدم إلى الناس ولدينا شبه اقتناع بأن رؤوسهم خالية من كل معتقد ديني آخر بفضل ما تشبعنا به من غطرسة غربية، ثم إننا كنا نقدم لهم "الله" وكأنه غربي بفعل اقتناعاتنا بأن كل شئ في هذا الوجود هو غربي، أو أنه يجب أن يكون كذلك.

هذا ولقد استطاع الغربيون أن يقنعوا العالم بأن التصرف الحضاري الصحيح هو في تمثلهم، ومع هذا فهم يمارسون في حق البشرية كلها أعنف صور الاستغلال، وأفظع مظاهر الارهاب، أما أعنف صور الاستغلال فتبدو جلية كالرمح في استئثارهم بموارد الدول النامية بشكل يبعث على الاشمئزاز حيث يبرز الشكل الديمقراطي للكرة الأرضية على النحو التالي: ٥٠٠مليون غربي يعيشون في أبهى صور الترف بينما نجد على الطرف الآخر حوالي الأربعة مليارات من البشر في مجاعة وفقر يبعثان على البكاء"[١]".

ولا تزال تسدد الطعنات للاسلام من قبل قوي اليمين الأمريكي البروتستانتي حليف الصهيونية العالمية، ومن ادعوا ان فكرة "العهد

١ - راجع تعليق الدكتور فهد ألحارتي، على كتاب روجيه غارودي حوار الحضارات - مجلة اليمامة - العدد ٦٤٧ - ١٩٨١ السعودية، الرياض.

القديم" مكمل وجزء هام من "العهد الجديد" وأنهما - معا - يشكلان تراث الحضارة الغربية، واقصاء حلقات الحضارة الإسلامية، مع انها قامت بدور تفعيلي، ولولا العلوم التي انشأتها والتراجم التي حققتها لكان الغرب لا يزال موغلا في ظلام القرون الوسطى.

ومن مفردات أساليب الاتهامات المعبأة في سلة خاصة بمنطقة عرب ومسلمي الشرق الأوسط، "الديموقراطية"، دائما ينحي الغرب علينا باللائمة مدعيا في "صيغة اتهام" ان العالم العربي والإسلامي غير مستعد لقبول الديمقراطية والتعددية، ونسوا أن المسلمين أول من طبقوا نظام الشورى في الإسلام.

وبعماء وعجرفة يتوهمون أنهم يأخذون بأيدينا ليعلمونا الديمقراطية ويضربون لنا الأمثال - فكرا وتطبيقا - بما يقدمونه لشعب العراق، وما سوف تسفر عنه النتائج من خير بعد أن ينزعوا سلاح "حزب الله".

وبصراحة يعلنون عن عدم تفاؤلهم حين نعود إلى حكم (الشورى) وحتى لو قمنا بأسلمة الديموقراطية فلا شئ من هذا القبيل يريح أعصابهم.. ما يثلج صدورهم تناولنا للديمقراطية في ثوبها الغربي، والا سنكون كمن يحرثون في البحر فلن يضرب لهم جذر في القاع، ولن ينبت لهم على السطح برعم.

وكانت الجماهير الراغبة في الخلاص من ديموقراطية السلطة تحيط ديمقراطية الغرب بالشك والظنون، وعمل الأصوليون رغم القيود المفروضه على خطواتهم بشكل التحامي مع قضايا الجماهير، وبخبرة أكسبتهم نضوجا يضاف إلى رصيد كفاحهم النضالي، ومن ثقافة عربية وتراث حضاري، أضاء جنبات العالم خاضوا المعركة الانتخابية عام ٢٠٠٥، وجاءت نتائجها مثل صاعقة أصابت القابعين وراء كراسي

الحكم بالروع.

وبدات الأقنعة تتساقط عن وجود الأدعياء ومن زيفوا إرادة الشعب لأكثر من سبعين عاما، وتحديدا منذ ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢، ثم إن ما جرى خلال معركة الرئاسة المصرية ومعارك الانتخابات البرلمانية أعطى دلالة جديدة ووجها مضيئا من مستقبل النضال السياسي وتهميشه لرؤوس كثيرة من التابوهات.

ولو كان للحزب الوطني رئيسا غير رئيس الجمهورية لما حصل على صوت واحد، ولو كان له نائب يجلس باسمه تحت قبة البرلمان، فإن هذا يضاعف من حجم المسؤلية على نواب الشعب:

"وعلى الإخوان" أن يدافعوا عن مصالح الفقراء الاقتصادية والاجتماعية، والا يتخلوا عن الضعفاء والمهمشين مهما كان الثمن، لأن النيابة هى عن الأمة جميعها، وهى امانة ينبغي عدم التفريط فيها، ومن ثم فكل عمل يضر الفقراء مثل تغيير قانون الإسكان، أو إلغاء الدعم، أو المزيد من الخصصة والعولمة، أو فرض الضرائب أو زيادة الأعباء، أو إلغاء مجانية التعليم.. إلخ من واجب "الإخوان" التصدي لها بطريقة حقيقية، وليس لمجرد تسجيل موقف"[١].

هذا من جانب، ومن جانب آخر عالجت الجماعات الإسلامية الاختلاف الذي تفشى حول تبني اطار فقهي ونظري يسمح لأعضائها بأن يلعبوا دورا محوريا على أرض الواقع، وصياغة مشروع "للإسلام السياسي على قواعد وأسس جديدة".

التعديلات التي أخذ الأصوليون بها أحدثت طفرة على مستوى

١ - المرجع: د. محمد مورو (ما بعد الهزيمة الأمريكية في العراق، مكتبة جزيرة الورد. المنصورة - ط أولى ٢٠٠٦ص١٧١.

العمـل السياسـي، ومـع انهـم ليسـوا حزبـا، وأن جماعـة الإخـوان المسـلمين لا تـزال تعامـل علـى انهـا مـن القـوى المحظـورة نشـاطها بحكـم القـانون إلا أن أعضاءها يتكاثرون.

نحـن إذن أمـام مولـود شـرعي تبنتـه الجمـاهير منـذ حـوالي قـرن مـن الزمـان، وإن كـان المسـؤولون يصـرون - حتـى الآن - علـى عـدم استخراج شهادة ميلاد لـه.

والسـؤال الـذي يطرحـه عقـلاء الحـزب الـوطني علـى لجـان الأحـزاب: أيعقـل أن تمـنح فرصـة حـق العمـل الحزبـي لمـن يعتقـد فـيهم أنهـم الأعـداء الرئيسيون، والمتوقع منهم أن يسعوا لسحب البساط من تحت أقدامهم؟.

"وكيـف يمكـن أن يحـدث تغييـر سياسـي حقيقـي تحـت ظـروف التـوتر والاقصـاء بـين السـلطات والمعارضـة؟.. هـل تعتقـد الحكومـات أن بإمكانهـا القضـاء علـى ظـاهرة اجتماعيـة متجـذرة بعمـق فـي الهيكـل الثقـافي والحضاري للمجتماعات"[1]".

يـؤدي التأسيس علـى بنـاء قواعـد سـلمية للسـلوك الـديموقراطي إلـى نقـل السـلطة إلـى قـوى قـد تكـون أكثـر ديمقراطيـة واكثـر تمثـيلا للـرأى العـام، ولكـن الأنظمـة التـي تاخـذ فـي ادارة دواليـب أجهـزة الحكـم مـن التـراث قشـوره، وتطلـي واجهتهـا بمظـاهر الإسـلام لا تكـون مسـتعدة للتعامـل مـع مـن يسـعى لتوظيـف هـذا التـراث واسـتيعابه، خاصـة وان الحركـات الإسـلامية لا تريـد أن تسـقط مـن الحيـاة أهـم حلقـة رئيسـية مـن تـاريخ الفقـه الإسلامي والفقه السياسي.

وحتـى لا يشـجر الخـلاف ويـؤدي إلـى مواجهـات قـد تـراق علـى

١ - د. فواز جرجس..... دراسة تحت الطبع.

جوانبها الدماء، رأت بعض الحركات الإسلامية "حفاظا على الأوضاع الراهنة" أن تشارك وتدعو للتعامل مع السلطات الحاكمة:

"ومن الأمثلة على ذلك الحركات الإسلامية في اليمن ولبنان والأردن والكويت، وأماكن اخرى اختارت استراتيجيات سلمية وايجابية ورفضت المواجهات باهظة الثمن، مع الأنظمة والحكومات، حتى برغم وجود خلافات جوهرية مع النخب حول جدول أعمالها أو مبادئها السياسية والأديولوجية، يبدو أن قيادات هذه الحركات قد قبلت بقواعد اللعبة للحيلولة دون المخاطرة باستقرار الوطن والناس"[1].

في مصر جرت قواعداللعبة على وجه مختلف، إذ توثقت العلاقة في جوار مصيري يربط بين عدة أطراف يفترض أن لكل واحدة منها وجها من النشاط الاجتماعي المختلف، وعلى الرغم من التباين الذي يميز بينها الا أن وزارة الداخلية استطاعت أن تربط وتنسق الجهود بينها وبين وزارة الأوقاف والأزهر وأجهزة الإعلام، الجميع يوحدون الجهد بحيث يخرج الخطاب الاعلامي سواء منه المنشور على صفحات الجرائد أو المذاع على منابر خطبة يوم الجمعة مهاجما الساعين لملء صدور البسطاء بصور من حياة السلف الصالح واستعمالها لقلقة الأوضاع والانقسام الاجتماعي.

بعض من كتبوا في تعميق هذا الإتجاه رموا الجماعات الأصولية بالتخريب، مع ان جماعةالإخوان المسلمين تركز منذ باكورة ظهورها على تنمية النشء بالخلق القويم والطهارة المتعلقة بالجسد والروح.

لعلنا نتبين ذلك من الرسالة الأولى للمرشد العام للأخوان المسلمين

---

١ - المرجع السابق: د. فواز جرجس.

الشـيخ حسـن البنـا (١٩٠٦ - ١٩٤٩) الصـادرة فـي ٢٠ شـعبان ١٣٥١هـ (الموافـق ١٩ مـن ديسـمبر سـنة ١٩٣٢) عقـب انتقـال الـدعوة مـن الإسماعلية إلى القاهرة، وتتضح خطة العمل فيما يلي: -

- سـلامة الاعتقـاد والاجتهـاد فـي طاعـة الله تبـارك وتعـالى وفـق الكتاب والسنة.
- الحب في الله والاعتصام بالوحدة.
- التأدب بآداب الإسلام الحنيف
- تربية النفس والترقي إلى معرفة الله وتفضيل الآخرة على الدنيا.
- الثبات على المبدأ أو الوفاء بالعهد.
- الاجتهـاد فـي نشـر الـدعوة الإسـلامية بـين حلقـات الأمـة ابتغـاء وجـه الله.
- حب الحق والخير أكثر من أي شئ في الوجود.

هـذه الخطـوط العريضـة لمولـد البرنـامج العـام لجماعـة الاخـوان المسلمين، فيما بين ما هو خاص بأعضاء الجماعة وبين ما يمس جوهر العلاقة بالواقع الداخلي وما يمس حدود الله.

وكمـا راعـى الشـيخ حسـن البنـا أن تهـتم "الجماعـة" بـدعم وتنظـيم العلاقـة بـين الأفـراد وطبقـات الأمـة اهـتم بـأن تكـون الأنشـطة الداعيـة لحركـة الجماعـة غيـر قائمـة علـى حركـة السـوق والـدخول فـي حلبـة المنافسـة، وعنـدما رأى بعـض الأعضـاء أن ينـزل باسـم الإخـوان فـي الميـدان الاقتصـادي بحجـة منافسـة المـال اليهـودي والاجنبـي الـذي كـان مسـيطرا فـي بعـض النـواحي علـى المصـريين ويضـع فـي قبضـته الشـؤون

الاقتصادية والسياسية للوطن، فإن الشيخ البنا لم يوافق الا بشرطين:

الأول: عدم الخلط بين نشاط الدعوة والنشاط الاقتصادي لا في الشكل ولا في الموضوع بمعنى الا تكون هناك شركة تجارية أو مشروع اقتصادي تحمل لا فتة أو شعار الاخوان المسلمين.

الثاني: صحيح المال لازم للدعوة وةالدعوة محتاجة للمال، ولكن الدعوة شئ في نظامها وتطبيقها والمال شئ آخر في نظمه وطبيعة دولابه.

تلك هى واحدة من الجماعات الإسلامية التي اجتمعت مختلف الأجهزة لمحاربتها والتنديد بمواقفها وهو موقف يرهص بعودة حملات القمع المشهورة عقب قيام حركة الضباط عام١٩٥٢ وتفريغ مضامين الديمقراطية من أطرها والزج باعضاء الجماعة داخل السجون.

إن استخدام العنف السلطوي ضد الحركات الأصولية لا نظير له:

"وان استخدام العنف من قبل الجماعات المتطرفة ليس نظريا في الأساس، ولكن نتاج للتاريخ، إن المتطرفين الإسلاميين لم يرتكبوا أعمال عنف بسبب نظرياتهم، لكن الأحرى أن نظرياتهم التي تبرز العنف قد تم اشتقاقها من العنف الذي تعرضوا له"[١].

وليس أمامنا من سبيل سوى القضاء على أفكار التشرذم والشعوبية البغيضة وإجلاء القواعد العسكرية والعودة إلى الأصالة العربية، ولكن بطريقة معاصرة تحافظ على التراث وتستفيد من العلوم الحديثة بطريقة لا تجعلنا نفرط أبدا في علمائنا من الشباب حيث تكشف إحصائيات أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا أن اكثر من ٤٥٠ألف مواطن من

١ - المرجع: د. احمد موصلي (آراء الحركات الإسلامية في الديمقراطية والتعددية السياسية) دراسة تحت الطبع.

حملـة المـؤهلات العلميـة العليـا هـاجروا إلـى الغـرب خـلال نصـف القـرن الماضـي وبـرز مـنهم ٦٠٠ عـالم مـن ذوى التخصصـات النـادرة فـي الهندسـة النوويـة، والفيزيـاء النوويـة، وفـي الكيميـاء وعلـوم الفلـك والفضاء، والبيولوجيا والميكروبيولوجيا، وغير ذلك

هذه مجتمعـة وحكـم الشـورى إذا تحققـوا انتفـت مشـاكل المجتمـع وأصـبح النسيج الاجتماعي لا رتق فيه ولا رثاثة.

* * *

الصور المسيئة

كشفت الصور المسيئة عن أزمة العقل الأوروبي، وان الأوروبيين عندما لا يتعاملون مع نواميس الحياة يظهرون في حالة من الشلل العقلي مما يعيقهم عن فهم كثير من عناصر الثقافة العربية الإسلامية وثوابتها الكبرى لدرجة أنهم حين تعاملوا مع حالات الغضب التي اعترت نفوس المسلمين نظروا اليها كموضوع تجاوز حدوده لدرجةانه صار غير مبرر ولا مفهوم.

ربما لأنهم ألفوا في حياتهم ألوانا من التعبير، فيها من إعلاء شأن اللذة وتقديس الجسد، وفيها من الخصوصيات الفردية ما تنأى عنه الذائقة الجمالية للشرقيين.

ومن المنابع التي نهلوا منها فكريا وثقافيا اعتبروا أن من حقهم تناول رسولنا ﷺ بشئ من النقد الساخر ووضعه في صور مسيئة، ولعلنا لم نجاف الحقيقة المرة إذا قلنا أن هذه ليست الخطيئة الأولى في حياتهم، ولكنهم تهجموا - من قبل - على حياة الرسل والأنبياء والأديان تحت مظلة من القوانين المدنية.

لقد ظهر ذلك جليا حينما هاجمت أقلام الصهيونية المسيحية خاصة في أوربا الغربية، وبعد تصاعد حركة الشباب في ١٩٦٨، وكان شعارها: "من الممنوع أن تمنع" ومع قناعة مفرطة أفضت بهم إلى عدم الاعتراف بسلم قيمي ولا أخلاقي ولا ديني، ولا أديولوجي، ولا حضاري، ولا أي شئ يتسبب في تجميد ممارسة الانسان لحريته.

فكان الهجوم على السيد المسيح شخصيا، والمسيحية كدين، وما كاد الهجوم تخف حدته ويخفت صداه حتى اندلع - حديثا - ضد المسلمين ورسول الله ﷺ.

حمّلوا الإسلام أوزارا لم يقترفها.. وضعوا الرسول في صور مسيئة.. في بداية الهجوم، وقف بوش وشيراك وبابا الفاتيكان ضد هذه الحملة البذيئة..

أكدوا: "إن حريةالتعبير يجب أن تتضمن دائما احترام معتقدات الآخرين".

ثم سرعان ما انقلبت الأمور رأسا على عقب، من تابعوا حملة العداء المسعورة ظنوا انها وليدة تلك الساعة.. من يقرؤون أخبار الأيام توصلوا إلى أن رجال الدين الكاثوليك في إيطاليا خلال القرن الخامس عشر الميلادي قادوا بأنفسهم حملة شعواء ضد الإسلام.

ولكن من يبحر بين ضفاف الحياة والتاريخ سيكتشف الجراح الغائرة في جسد المسلمين جراء الطعنات التي سددت إلى صدورهم منذ انعقاد مؤتمر "فيينا" ١٣١١م الذى دعا اليه وترأسه البابا "كليان" الخامس وفيه استقر رأي المسيحيين المتعصبين على إنشاء مدارس دينية في برلين، وبولون، وإكسفورد، لتدريس اللغة العربية والعبرية والكلدانية لتخريج قوى وأجيال تستطيع تنصير المسلمين وتشويه دينهم ومسخ أبعاد الحق والخير فيه.

منذ تلك السنوات البعيدة كان شغلهم الشاغل تفعيل القرارات التي أسفرت عنها مؤتمراتهم السابقة واللاحقة، بينما لبث المسلمون ملتزمين بتعاليم دينهم السمحاء والايمان بموسى وعيسى.

ومن باب تفعيل مخططاتهم رأوا من الأهمية القيام بشحن نفوس مواطنيهم بروح العداء من خلال ما تفرزه أقلام مدربة على اشعال مشاعر التطرف والعداء لكل من يمت للإسلام والمسلمين بصلة.

النماذج المطروحة على الساحة الإعلامية - المقرؤة والمسموعة والمرئية - جد كثيرة، من مظاهر ذلك ما نشر على صفحات مجلة تايم الأمريكية في يونيو ٢٠٠٥، أي بعد أن أحكمت الولايات المتحدة سيطرتها على العراق وأشاعت فيه الفساد والإنقسامات الطائفية، وأعطت للموساد الإسرائيلي حرية الحركة والإقامة والانتقال بين اربيل وكركوك والموصل وباركت عقد الصفقات عن

طريق المخابرات الإسرائيلية مع من لا دين لهم، لتنفيذ عمليات قتل يتهم فيها الشيعة السنة، وعمليات قتل يتهم فيها السنة الشيعة.

نعود إلى موقف أمريكا التي تدعي من قلب قواعدها في العراق ودول خليجية أنها معنية في المقام الأول بمحاربة الإرهاب، وهو ما عبرت عنه مجلة تايم ذات الميول الصهيونية بقولها:

"إن الحرب على الإرهاب هي حرب طويلة جداً، لن تحسم في معركة هنا أو هناك، وأنها ستستمر لأنه عبارة عن مرض تحتويه الثقافة العربية والإسلامية، وهى مزيج سام من القمع والفساد وعدم التسامح والتعصب، تغذيه أنظمة ديكتاتورية متلهفة على أن تبعد عنها الغضب الشعبي وتحوله نحو الأمريكي الكافر، وإلى أن يحدث تغير جوهري في هذه الثقافة السياسية، فإن الفكر الجهادي سوف يزدهر"

يعالج المقال عدة أوضاع داخلية، ويضعنا أمام مفردات منها ما يشكل في حياة الأمة العربية والإسلامية تاريخا مادته فصول القمع.. الفساد.. التعصب.. الديكتاتورية حتى ليمكن القول بأنه لمس وتراً حساساً يعبر عن عصب العلاقة القائمة بين السلطة والمواطنين.

عادة. عندما يتكلم العدو يشك المرء في توجهاته.. من حق الذين ذاقوا مرارة الظلم والاستعباد أن يشكوا، لا نقول عقدة الإضطهاد.. لا نقول عقدة النقص هى التي تعجن أفكارهم وتشكلها،ولكنها الخبرة المستفادة من دروس الأيام، بفضلها يعرفون جيداً الأعداء المحليين ومتى تصفي تركتهم، وبفضلها يعرفون أن هذا النوع من كتابات مجلة تايم الأمريكية يذكرهم بصياغة المنشورات التي كانت توزع في الماضي ضد الذئاب المحليين.

في لغة تحريضية تبغي المجلة أن تقلب المواطنين علىالحكام والحكام على

المـواطنين، بـنفس الصـياغات التـي تقـام عليهـا مبـادئ بروتوكـولات حكمـاء صهيون، بفقراتها المعنية بنسج خطوط الانقلابات، وتصدير الثورة إلى بلدان العالم، ثم بعد ذلك يقع الشجار بين مختلف الفرقاء المحليين، ومن يبقى منهم بعد التصفيات الجسدية يجدون أنفسهم يقعون فريسة بين فكي مخالب الثعالب الغربية.

التاكتيكات صناعة صهيونية.. قديمة.. مبتذلة.. أوربا الغربية والشرقية التي عاش بين ظهرانيها اليهود وإذاقوها الأمرّين تعي أبعادها جيدا وتدرك مدى خطورتها.

بالنسبة لأوضاعنا العربية قد تأتي النتائج على هذا الطرح بما لا يسر، غير أن الجماهير، بكل مشاعر القهر والكبت صبت جام غضبها على الخارج متجهة في مظاهرات، عارمة ضد الصور المسيئة لنبينا الكريم ﷺ.

الشوارع العربية والإسلامية وهى تموج بالغضب: كيف يتناسى من يسئ إلى المسلمين ما كتبه عقلاء الغرب ومن كانوا يتصفون بالحصافة والاعتدال حين وضعوا سيدنا محمد ﷺ على رأس تصنيف أعظم أعلام البشرية، وجميعهم مائة كان على رأسهم رسول الله ﷺ باعتباره قائدا ورسولا ومرشدا وسياسيا وإداريا؟.

بلكنة يكسوها عدم الإكتراث يجيب الغرب بأن من حق مواطنيه ممارسة الحرية والتعبير عنها بمختلف الأساليب، ومن بين هذه الوسائل التعبير بالرسومات.

ومن يتأمل الصور المسيئة والخطوط التي استعملت في تكوينها سيقطع بعدم انتسابها للحرية، وإنما هى تعبير عن مشاعر عدائية قد تستخفي لفترات تحت السطح، وحينما تجد الفرصة مواتية تهب مندفعة في عاصفة للإنقضاض

على كل ما هو مقدس في حياة المسلمين.

وعلى مستوى تكتيك سياسية (خطوة - خطوة) تُنسج خيوط المؤامرة، وفصلا تلو فصل يفضي بنا المطاف على هذا المنوال إلى الهدف النهائي الخاص بهدم عقيدة الإسلام وتشويه تعاليمه بحيث إذا أعيد نشرها على المواطن الغربي نراه لا يختلف معها فحسب، ويا ليته يختلف ويناقش لعله يهتدي، وانما ينطلق في جموح وعماء لمحاربة الإسلام.

وواقع الحال يؤكد أن ذلك النوع من الكراهية لم يبدأ بنشر تلك الرسوم ولكنها محصلة عقود وأجيال ما فتئت تنكب على الاساءة للقرآن،، لسيدنا محمد ﷺ.. للغتنا العربية، ومن ذلك تلك الروح السوداء التي ظهرت أثناء محاكمة "حمزة المصري" في لندن يوم ١٩يناير٢٠٠٦.

سُلمت أثناء المحاكمة للمحلفين الذين لا يعرفون اللغة العربية عدة نسخ من القرآن، ووقف المحامي "فيتز جرالد" المكلف بالدفاع عن المتهم، ولم يغب عن براعته أن يوهم الحضور ومن كانوا يتابعون المحاكمة أنه يريد أن ينقذ العدالة بتبرئة "حمزة المصري" من تهمة التحريض على الكراهية، فكيف يكون القصد من وراء ذلك طعن القرآن شريعة المسلمين؟.

بدا المحامي في أقواله التي اشتركت عشرات الصحف والمجلات في نشرها وكأنه لا يقصد الإساءة إلى أحد إنما هو مهموم بأن يوضح لهيئة المحلفين وعدالة المحكمة ما يصنعه الدين الإسلامي في عقول الشباب من أمثال "حمزة المصري" ثم طلب إلى من كانوا هناك أن ينظروا إلى القرآن وهو يحث على الجهاد والقتال دفاعا عن الدين ثم أضاف:

"لقد قيل أن موكله كان يعظ داعيا للقتل، لكنه في الحقيقة كان يأخذ موعظته من القرآن نفسه"

واستشهد بآيتين من القرآن إدعى أن أبا حمزة يستند إليهما ضمن آيات أخرى كثيرة طوعها للتفسير الذي جاء على لسانه، وأدى إلى اتهام موكله.

وفي محاولة أخرى من محاولات الطعن أراد أن يوضح بها لهيئة المحلفين، قائلا:

"إن كلام أبو حمزة الذي وصفه الإدعاء بأنه يصل إلى حد محاولة إثارة الكراهية العنصرية ضد الشعب اليهودي، راجع إلى الحديث النبوي"

أي أن الأحاديث الدينية الشريفة التي أخذها المسلمون عن رسول الله ﷺ والصحابة أجمعين هي موضوعات لإثارة الكراهية العنصرية.

فأي جحيم تلك التي يريدون ان يلقوا فيها المسلمين؟.

وبالعودة إلى رسوم الكاريكاتير المسيئة، نراها أول ما نشرت على صفحات جريدة "بولا ندز بوستن" الدنماركية في سبتمبر أيلول ٢٠٠٥، وأعيد نشرها في صحف نرويجية في بداية عام ٢٠٠٦، وأعادت نشرها صحيفة "ابي ثي" اليمينية في أسبانيا، وصحيفة "بليك" السويسرية، و"ديلي تليجراف الهولاندية".

أحكم هذا المخطط وتم تنفيذه تحت ما يسمى بحرية التعبير.. فهل من مواصفات التعبير الحر أن ينحرف بالإساءة إلى ما هو مقدس في حياة البشر؟.

لو أن هؤلاء ذاقوا معاني القداسة، ولو أنهم كانوا على دين المسيح لما أساء أحد منهم إلى ديانة الآخر، ثم هل الحرية التي ناضل الملايين من البشر على مر العصور للحصول عليها ينتهي بها المآل لتصبح في يد رسام أو كاتب لا يلم بالدين الإسلامي ويستعملها في الإساءة لمليار وثلاثمائة مليون مسلم؟.

حرية التعبير المزعومة هى حجة يتذرع الغرب بها عندما يتعلق الأمر بشؤون الشرق الإسلامي ويحيلها إلى وسيلة تعبر عن نشر العداء، في وقت

كان ينبغي فيه أن يكون عنوان الحرية: الحضارة الغربية.. احترام حقوق الانسان وعقيدته.

فهل تسمح حرية التعبير في الإسلام لفنان مسلم أن يرسم - لاقدر الله - صورة السيد المسيح وهو على الصليب وبدلا من أن تحاط رأسه بهالات وأكاليل من النور، يرسمه برأس يخرج منه الثعابين؟

إن حياة الرسل والانبياء في الإسلام لا يتناولها المسلمون باللمز والهذاء والسخرية تحت أي مسمى ديمقراطي أو تعبيري، وإذا تحدث مسلم عنهم فبكل الاحترام والتبجيل.

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: ٢٥٣].

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} [الحج: ٣٤].

هذه دعوة الإسلام.. مآثر.. بينات.. هدى.. الايمان بوحدانية الله، ونحن نتعلم منها أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن شتاما ولا معنفا ولا هجاءا، وكان يرى أن للآخر حق الاختلاف وعلى المسلمين أن يكون لهم الحق في الرد الكريم، المهذب:**{وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: ١٢٥].

الفرق بين الجدل الإسلامي والجدل الغربي أنهم هناك ينحرفون في تطاول كما فعل رسام جريدة "بولا ندز بوستن" ووضع للرسول عدة صور شائهة منها صورة برأس تنطلق منه عدة قذائف ومتفجرات، مشيرا في خبث بأن القذائف التي تهدد حياة الأبرياء تخرج من رأس الارهاب العربي.

إن دل ذلك على شيء فإنما ليدل على جهل الرسام الدنماركي بالدين الإسلامي وتعاليمه السمحاء، ولم يقف الأمر عند جهله، وكان يمكن أن تغلق صفحات المشكلة لو أن صاحب الرسومات المسيئة قدم إعتذارا، ومهما كان حجم الاعتذار فإنه لن يكف بالرغم من أن التسامح هو من أهم القيم التي عاش ومات عليها رسول الله ﷺ.

ولبث المنطق الغربي يعلن الانحياز إلى حرية الرأي في الدفاع عن الصور المسيئة، فيبدو متحيزا، ومتهافتا وخطيرا، وهذا ما حذر منه بيل كلنتون الرئيس الأمريكي السابق،عندما أشار إلى أن ألعداء للسامية قد تحول إلى عداء الإسلام.

الأمر الذي أفصحت عنه الصحف الأوربية حين تضامنت مع كتاب ومحرري جريدة "يولاندز بوستن" وقامت بنشر الصور المسيئة مرة أخرى، وكأنها تقول للمسلمين في أنحاء العالم: نحن نكرهكم.. يامن لم تتذوقوا طعم الحرية.. يامن لم تعرف رقابكم غير سيوف الحكام الدكتاتوريين.

من الذي يجيب الآن؟.. الحكام؟.. المثقفون؟.. رجال الدين؟

الجماهير العربية والإسلامية خرجت عن بكرة أبيها، أطلقت الحناجر مع صعود أصوات المآذن للصلاة، ملبية النداء: نحن فداؤك يا رسول الله.

والحديث مستمر عن الحرية الغربية يصادفنا العجب العجاب إذا تعلق الأمر بشؤون المسلمين، وإذا استعملت هذه الحرية ضد شخص ما فإن القيامة تقوم وموازين العدالة تنتفض لصالحه، وتصبح الحرية المزعومة طلاء من الزيف الاجتماعي وبريق مخادع.

وبدلا من أن تقف الحرية الغربية إلى جانب الحق والأخلاق والمثل الرفيعة نجدها تحابي الرذائل، بل وتحميها، وتعظم من شان مرتكبيها.

نسوق على سبيل المثال ما نشر على صدر مجلة "باري ماتش" الفرنسية

في٥ مايو٢٠٠٥، وهو صورة لطفل أنجبته أم مضيفة في إحدى شركات الطيران من علاقة محرمة وقعت بينها وبين امير موناكو.

على الفور. طيرت وكالات الأنباء العالمية الخبر الذي عرى حياة الأمير، فما كان من الأمير الا أن ظهر مرتديا ثياب الأمانة والفروسية الزائفتين، وقد أكد - في لقاءات - معه في التليفزيون علاقته بالمضيفة. وأقر أبوته للطفل.

كان يمكن عند هذا الحد أن تسدل الستار على فصول من فضائح الأمير الا أن سيادته أظهر مدى شغفه وحبه لممارسة الحرية الشخصية، فطرق أبواب المحاكم مدفوعا بمشاعر الرجل الغربي الذي تربى على مبادئ الإقتناص وكيفية الحصول على آخر سعر لصرف الفوائد حتى لو كان العائد عبارة عن حصيلة لعلاقة غير شريفة.

وبالفعل رفع دعوى قضائية ضد مجلة "باري ماتش" وفي الجلسة الأولى حكم القاضي الفرنسي أن تدفع له المجلة خمسين ألف يورو مع نشر هذا الحكم على صدر المجلة، وفي حيثاته أكد: "أن المجلة ارتكبت خطأ التدخل في حياة "ألبرت" وهو شخصية مهمة لا يجوز اقتحام خصوصياته!! "

يعيدون الثقة والإعتبار مع الإعتذار لشخص مارس الزنا وبنص قانوني، وعندما يسيئون إلى مقدساتنا لا يعتذرون.

واكب هذا ما نشرته الصحف المحلية عندما تناول كتابها موضوع الصور المسيئة بالتجهيل، ربما بحسن نية، أو ربما لأن الحملات التي تشن ضد أمتنا كانت غير واضحة المعالم في حياتهم بسبب عجز في أجهزتهم المعرفية، فجاءت كتاباتهم على منوال التغرير بالقراء حيث كانوا يصورون الخلاف بين الشرق والغرب على أنه شب بسبب سوء الفهم وعدم التقدير من الجانبين "الشرقي والغربي" وان الغربيين لا يحسنون الظن بنا ولا يفهموننا الا بسبب

جهلهم لوسطيتنا كأمة مبشرة:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُـهَدَاء عَلَـى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٢] وكذلك:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِـالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [فاطر: ٢٤].

والغريب في هذه القضايا أن عامة المسلمين - لطيبة قلوبهم - ظنوا أن الآخر سيؤمن ويصدق رسالة البشير محمد بن عبد الله عليه وعلى أصحابه السلام.

والحقيقة أن مبلغ الإحترام لن نصل له لأننا لم نأخذ بعد الموعظة والدروس من قوله سبحانه وتعالى:{ولن ترض عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم} [البقرة: ١٢٠].

وبما أن المسلمين مأمورون بالتكليف، فإن عليهم التبليغ، أما النجاح في ذلك فهو أمر يتعلق بمشيئة الله وتصديقا لقوله سبحانه وتعالى:{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢١ - ٢٢] وقوله عز من قائل:{إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦].

وفي مجال التعبيير فإن المسلمين مع حرية الرأي، ويتفهمون دساتير العالم وميثاق الأمم المتحدة الذي ينص على حرية العقيدة والرأى شريطة الا يستخدم هذا الرأي في الإسفاف والزراية بعقائد الآخرين، ونحن مع نص المادة ١٩ من الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي ينص على حرية التعبير.

ولكيلا تسوقنا المشاعر الدامية إلى ساحة العنف، وهي ليست من الإسلام في شيء، فإنه لا يمكن القضاء على الإرهاب بإستولاد ارهاب آخر مثل الذي حدث على أيدي الولايات المتحدة الأمريكية في العراق.

وحسبما قلنا آنفا إن الأباطيل والإفتراءات التي تلصق بسيدنا محمد ﷺ وبالإسلام ليست وليدة اليوم، وقد تصدى لها منذ أكثر من خمسين عاما الأستاذ

عباس محمود العقاد، ووضع عدة كتب في هذا الشأن منها: "ما يقال عن الإسلام" تناول فيه بالتفنيد والرد العلمي والموضوعي على خمسين كتابا صدرت في الغرب، وجميعها تظهر العداء والكراهية لنبي الإسلام، ثم تلى ذلك "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" وقد أوضح فيه أن خصوم الإسلام لا يكتفون بإشاعة روح العداء والخصومة، بل يؤكدونها حين يتطرقون للثوابت بأساليب لا رائحة للصدق فيها ولا لموضوعية التناول.

بعد ذلك صدر للأستاذ العقاد كتاب "الإسلام دعوة عالمية" رد فيها على من وصموا المسلمين بتهمة التخلف والجمود، وأثبت بالحجة أن الإسلام دعوة تحث الناس على العمل والحركة والسير في مناكب الحياة:

{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} [التوبة: 105] و{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّـهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّـهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] و،{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥].

وتوالت حينذاك كتابات الدعاة والمصلحون ضد التعصب والجهل، ومنهم العلامة محمود شاكر والشيخ عبد الحليم محمود وخالد محمد خالد ومحمد الغزالي ومحمد عمارة.

ولكن المشكلة التي صادفتها الكتابات المستنيرة أنها كانت تعاني من ضيق الإنتشار، بمعنى انها كانت تنتشر في الداخل بينما نحن في مسيس الحاجة لنشرها وإذاعتها على العالم، ولا تزال الحاجة مُلحّة إلى من يخرجها من حيز الضيق لينشرها على العالم فتحقق الفائدة، إذ كلما اتسعت دائرة المعرفة ضاقت سبل المغرضين وانكشف عوراهم.

* * *